القصص

مغامرات آخر بنى سراج

لشاتوبريان

Les Aventures des Dernier D'Abencerage
par Chateaubriand

تلخيص وتحليل ونقد

بقلم الآنسة سهير القلماوى
ليسانسيه فى الآداب

بنو سراج فى التاريخ

اذا كان تاريخ سقوط غرناطة يحفه الكثير من الغموض والكثير من النقص واللبس، فلا غرو اذا كان تاريخ بنى سراج كله غموض وابهام، وكله لبس ونقص. لانجد كتابا يذكر عن بنى سراج شيئا كافيا، ولانجد كاتبا ينتهى فى أمرهم الى ما ينتهى اليه غيره، هذا اذا ذكروهم وما أقل ما ذكروا.

فاذا بدأت بقولهم إن بنى سراج اسرة، تجد خلافا فى هل عرفوا فى التاريخ كاسرة حقا، أو أن التاريخ لم يعرف منهم الا فرداً واحداً؟ وهم بعد يختلفون فى حقيقة اسمه. واذا ثنيت بقولهم نشأوا فى غرناطة وجدت من يقول إنهم نشأوا فى قرطبة، ثم رحلوا عنها الى غرناطة. وهكذا يستمر الخلاف فى كل خطوة من خطى الكلام على بنى سراج

ولكن برغم هذا كله يمكن ان نستخلص من كلام المؤرخين فى شأنهم مايلى: إنهم اسرة عربية فى غرناطة فى أواخر ايام بنى الاحمر وكان هلاكهما على يد أحدهم: اما ابو الحسن على، واما ابو عبد الله. وكان لهم يد فى الخلافات الاخيرة التى وقعت بين امراء الاسرة الحاكمة. وهم مشهورون بعد بخلافاتهم مع بنى الزغرى او الزغبى، ونجد تأييدا لذلك كتابا اسبانيا الف حوالى سنة ١٥٩٥ عنوانه «تاريخ عصابات الزغرى وبنى سراج والحروب الاهلية فى غرناطة»

كذلك شهر بنو سراج بقصد الفتك بهم، فقيل ان بنى الزغرى كادوا لهم عند ابى عبد الله فقتك بهم. اما المكيدة نفسها فبعضهم يكتفى بالاشارة اليها، والبعض الآخر يتخذ الاسطورة المشهورة فى الفتك بهم كحقيقة تاريخية فيرويها. وفيما بعد تفصيل لتلك الاسطورة

اما شاتوبريان مؤلف القصة المشهورة باسمهم، فالظاهر انه كان يرى فيهم اسرة من اشراف غرناطة حاربهم الاسبان فقتلوهم وشردوهم، والدليل على قولى هذا ان بطل القصة آخر سلالة بنى سراج جاء اسبانيا للانتقام من سلالة السيد الاسبان لانهم شردوا اجداده وقتلوهم: ولو صحت لديه الاسطورة المشهورة لجاء ابن حامد منتقما من سلالة بنى الاحمر لا من سلالة الاسبان.

ننتهى من كل هذا الى ان بنى سراج اسم يذكر مقرونا بذكر سقوط غرناطة وبنى الاحمر. اما مآلهم واما حقيقتهم فشىء يحفه الكثير من الغموض ويحيط به سياج من الاساطير يخفى الكثير من الحقيقة.

بنو سراج فى الاساطير

اذا كان التاريخ لم ينصف بنى سراج فان الاساطير أنصفتهم كما أنصفهم الفن فى الادب والفنا.

تتعلق ببنى سراج اسطورتان مهمتان، وكلتا الاسطورتين كانتا منبعاً للادب او للقصص بنوع خاص.

اما الاولى فهى الاسطورة التى تروى فى سبب الفتك ببنى سراج وهى أن ابا عبد الله يلغه حب احد بنى سراج لاخته زريده، فثار ثائره، وجمع الاسرة كلها فى مكان من الحمراء وأحرقهم أو قطع رؤوسهم جميعاً، ومازال صدى اصواتهم يرن فى جنبات الحمراء شاكيا من ظلم ذوى القربى. ويلمح كاتب مقال بنى سراج فى دائرة المعارف الايطالية شبها عظيما بين هذه القصة والقصة التى تروى فى الشرق عن سبب الفتك بالبرامكة، مما يجعله يرجح ان قصة بنى سراج هذه ما هى الا أسطورة غربية صيغت على نسق الاسطورة الشرقية، فبنو سراج وزراء بنى الاحمر، والبرامكة وزراء بنى العباس، وفتك بالبرامكة

الرشيد ، لان جعفرا البرمكي أحب اخته العباسة ، وكذلك فعل أبو عبد الله بالسراجيين لأن احدهم احب اخته زريدة . ثم يقول كاتب المقال ، واسم زريدة وهو اسم غريب في الاسماء العربية ما هو الا تحريف نحكي لاسم زيدة زوج الرشيد .

ومما يعد هذه الاسطورة عن التاريخ أن مؤرخا عربيا واحدا لم يذكرها وان كان الاسبان اكثروا من ذكرها في مؤلفاتهم .

واما الاسطورة الثانية التي تتعلق ببني سراج فهي الاسطورة المذكورة في كتاب لانطيونو فالجانس اسمه تاريخ بني سراج وظريفة ، الفه سنة ١٥٥٩ وقد استقاه من كتاب لا يعرف مؤلفه اسمه Chronica d'Infanto dou Ferdinanto . ويروى فيه قصة ابن دريز الرامي الذي تزوج سرا من ظريفة ابنة قائد قرطبة والذي اسره قائد الاثقيرة . ولما صاحبته زوجه عن طيبة خاطر الى السجن اتخذت القائد شفقة على حالها المحزنة ، وعلى حبهما واخلاصهما ، وطلب الى ابيه ان يعفو عنهما : وحصل منه على امر باطلاق سراحهما . وقد رويت هذه القصة برقة زائدة حتى ان Gallards يقول ، يظهر انها كتبت بريشة من جناح احد الملائكة واشتهرت هذه القصة شهرة عظيمة واعجب بها Cervantes وذكرها في دون كيشوت . وكررها Monto Mayer في كتابه ديانا . واستخلص من موضوعها Lope de Viga روايته ..... Il Remedis . وكانت القصة باختصار موضوعا لعدة قصص من اشهرها واجملها ما رواه Augustions D'osar في روايته Romencers

هاتان هما الأسطورتان ، وما تفرع عنهما ، ولكن موضوع بني سراج انفسهم غير متأثر باسطورة معينة من الاسطورتين كان وحيا للموسيقي المشهور شروبني Cherubiny فقد وضع فيهم اوبرا مثلت في باريس سنة ١٣٨١ ووضع كلامها Gony ولا تزال بعض الحانها مشهورة الى اليوم

كذلك نجد ذكرهم عند شعراء العرب ، فهم يذكرون كثيرا . مثلا فيما قيل حول سقوط قلعة الحامة من شعر وغناء .

كذلك أنصفت الاساطير بني سراج كما أنصفهم الادب والغناء .

قصة شاتوبريان

هؤلاء هم بنو سراج كما يعرفهم التاريخ وكما تعرفهم الاساطير ولكن الذي رفع ذكرهم ليس التاريخ أو الاساطير ، وانما هي قصة الفها الكاتب الفرنسي المشهور شاتوبريان ، وهي قصة « مغامرات آخر بني سراج » . وليست القصة عن بني سراج انفسهم كما يدل عنوانها ، ولكن المؤلف اتخذ لقصته بطلا ادعى انه آخر سلالة هذه الاسرة ، ولا يغير من القصة شيئا لو كان هذا البطل آخر سلالة اي اسرة عربية اخرى شهدت سقوط غرناطة واصابها ما اصاب العرب جميعا اذ ذاك .

كيف استقى المؤلف قصته

عاش شاتوبريان في شمال فرنسا ، ولكنه عرف بكثرة الرحلات واتساع نطاقها ، كما عرفت اسرته كلها بولعها بالرحلات والمغامرات ، وقام شاتوبريان نفسه بعدة رحلات ، فقد سافر الى امريكا ، وكانت تلك الرحلة من أهم ما انتفع به في كتابه الذي رفع ذكره وهو Atala أتالا . كذلك عاش زمنا في لندره ، حيث كتب الكثير من مؤلفاته ، ورحلاته هذه لم تمل عليه ادبا خصبا ، وإنما وصفها في كتب عدة غير مشهورة .

ولكن هناك رحلة خاصة هي التي أوحت اليه بتلك القصة التي نحن بصدد الكلام عنها ، فقد تواعد واحدى صديقاته على زيارة الحمراء وما حولها في غرناطة . وفعلا تقابلا هناك وزارا معا الحمراء وما جاورها . وكان من أثر هذه الزيارة ان كتب القصة في نفس تلك الامكنة التي يصفها . في الحمراء وما جاورها .

هذا ما أوحى اليه بالقصة . واما مادة القصة فقد استقاها من كتاب اشرنا اليه آنفا وهو كتاب Ginés Perey de Hita في « تاريخ عصابات الزغرى وبني سراج والحروب الاهلية لغرناطة » الف هذا الكتاب حوالي سنة ١٥٩٥ ولكنه ترجم الى الفرنسية وطبع في باريس ثلاث طبعات ، الاولى سنة ١٦٠٦ ، والثانية سنة ١٦٩٨ ، والثالثة سنة ١٨٠٩ ، واذا عرفنا ان شاتوبريان مات سنة ١٨٤٨ عرفنا انه كان يمكنه الاطلاع على كل هذه الطبعات الثلاث للترجمة الفرنسية فوق ان احداها طبعت في شبابه ، فلا غرو أن لفتت نظره . وهذا الكتاب الذي ألفه De Hita مستقى من Pulgars Chroniéles ومن قصص العامة مسيحية واسلامية حتى أن بعضها ينقول نقلا . أضف الى كل هذا أن اوبرا Cheruoiny في بني سراج مثلت سنة ١٨١٣ فكانت حافزا للمؤلف ولا شك على تأليف قصته .

ملخص القصة

أما القصة نفسها فتتلخص في ان ابن حامد هاجر من قرطاجنه الى غرناطة شوقا الى رؤية آثار اجداده وأخذا للثأر ممن فتكوا بهم . وإثناء

زيارته لتلك الآثار التي كانت تثير اشجانه ، لمح أسبانية فتعرفها ثم احبها واحبته . وزارا معا قصر الحراء ، ولكن كل واحد منهما اصر على دينه ، وأصر على الا يتزوج صاحبه الا اذا بقي على دينه . وكان ابن حامد يعرف أن صاحبته من أسرة اسبانية عريقة ، ولكن لا يعرف عن هذه الاسرة شيئا ، وكانت أدماء Blanca تعرف أن صاحبها من أشراف العرب الذين هاجروا الى المغرب ، ولكنها لم تعرف لاسرته اسما .

ويضطر ابن حامد الى ترك غرناطة ليودع والدته قبل فراقها الحياة ، فيودع أدماء ويقسمان على الاخلاص والوفاء . ثم يعود اليها بعد أن فارقت أمه الحياة فيجدها كما أمل : وفية مخلصة ثابتة على دينها

ولكن يظهر لابن حامد منافس في حب أدماء هو صديق أخيها الفارس الفرنسي لوترك Lautrec ويعرض عليها أخوها الزواج من لوترك فترفض وتعترف له بحبها لابن حامد ، فيثور أخوها ويطلب ابن حامد للمبارزة فيتبارزان ويجرح ابن حامد . وتأتي أدماء الى ميدان المبارزة في صحبة لوترك ، وتحاول اصلاح الحال بين أخيها ولوترك من جهة ، وبين ابن حامد من جهة أخرى ، ولكنها الا تفلح ، ويصر ابن حامد على أن يحترم دون كارلوس أخاها ويحتقر لوترك حبيبها ويكرههما الاثنين .

وعند الغروب بينما كان ابن حامد سائر أسابحا في أفكاره ، اذ تنبه على صوت الناقوس يدعو النصارى الى صلاتهم ، فيدخل الكنيسة على إله النصارى وهو إلهه أيضا أن يحل ما تعقد في رأسه من أفكار . فيرى في الكنيسة (لوترك) راكعا يصلي ، فيهم بالخروج واذا به يفاجيء ادماء داخلة تصلي أيضا ، فيظن هو انها آتية للقاء لوترك ، ولكنها تنفي عنه الظنة قائلة « انا اعلى من أن أغشك » ثم تشكي له ما تلاقيه وتفهمه أنه بتنصره يبرئها من سقامها و[illegible] فيخرج ابن حامد من الكنيسة وهو مصمم على أن يتنصر في الصباح .

وفي المساء سار الى دون كارلوس فوجده قد سبقه الى بيت لوترك ، فسار اليه هناك فوجد أن لوترك يقيم حفلا في هذا المساء ، وبدأ القوم يغنون بمفاخر قومهم كعادتهم في حفلاتهم ، وغنى دون كارلوس فعرف ابن حامد من غنائه أنه أحد سلالة السيد الاسباني الذي جاء ينتقم من سلالته لاجداده بني سراج . وهنا كشف ابن حامد لهم عن حقيقته ، فخيره دون كارلوس بين المبارزة وبين التنصر والتزوج بادماء . وكان الخيار عليه صعبا ، فحكم ادماء ، فكان حكمها أن « عد الى صحرائك »

ظلت أدماء بلا زواج طول حياتها تندب السراجي ، وضم السراجي قبر لازال معروفا الى الآن في المغربية بقبر آخر بني سراج

هذه خلاصة القصة ونلاحظ عليها ما يلي .

١ - إن القصة كلها لا أصل لها في التاريخ . ويقول صاحب مقال بني سراج في دائرة المعارف الايطالية أن ليس لها من الحقيقة سوى الاسم : بني سراج .

٢ - إن الفكرة الدينية كانت عنصرا هاما في الموضوع ، وهي دائما عنصر هام في روايات شاتوبريان حتى قصته التي رفعته الى أوج الشهرة وهي Atala مبنية على الفكرة الدينية .

٣ - تعد القصة من مؤلفات شاتوبريان الثانوية ، قلما يقرؤها الا من كان معنيا بشؤون الشرق والشرقيين . ولكنها برغم هذا من القصص التي تترك في نفس القارىء أثرا بينا ، لا من حوادثها فقط ولا من شهامة ابطالها فحسب ، ولكن من هذا كله ومن الوصف الدقيق الذي تمتاز به .

٤ - أبطال القصة مرتفعون بشهامتهم وشرفهم ارتفاعا لا يقربهم الى نفس القارىء ، ومما ساعد على بعدهم عن قلب القارىء قلة التحليل النفساني الذي يصل بالقارىء الى معرفة هؤلاء الابطال معرفة تقربهم منه ، وهو وان كان قد عمد اليه في بعض الاحيان الا انه لم يوفق فيه . فشخصية ابن حامد وهي أهم شخصية في القصة لا تجد لها تحليلا كافيا ولا تتبينها الا اذا أسبغت عليها الكثير من خيالك الخاص .

٥ - والحادثات التي تجري في القصة متكلفة بشكل غريب ، وكان أبطالها كلهم ينشئون رسائل أو ينمقون مقالات ، وكان لكل هذا اثره البين في لباس هذه الشخصيات لباسا غامضا لا يتنوع بتنوع الاشخاص .

٦ - كان المؤلف في قصته وصافا اكثر منه مؤلفا قصصيا ، والظاهر ان موضوع القصة وأشخاصها لم يهم المؤلف قدر ما اهمه وصف الحراء وما جاورها .

الترجمة لشكيب [illegible]

ترجم القصة الفرنسية الكاتب المعروف شكيب ارسلان ، ولكن الترجمة حرفية ، وقد اخلت حرفيتها بكثير من معانيها ، وجعلت لها صبغة غريبة لغرابة تراكيبها وتعابيرها . ولو عمدت الى نقل المواضع التي اخلت بها الترجمة الحرفية لاكثرت واملت